الكويت: دراسة تحليلية

العتوب كانوا على دراية كبيرة بالمنطقة قبل الهجرة إليها

رأي يقول: إن العتوب استوطنوا جزيرة قيس قبل الإبحار للكويت

اعداد: رنده المصري قطينه

لقيام الدولة

ان لكل أمة تاريخها السياسى الذى يوضح تحدياتها وصراعاتها مع التفاعلات الخارجية والداخلية التى مرت بها من اجل ان تحتل مكانتها كدولة لها كيانها . ويعتبر تاريخ أى دولة مجموع حركات ومنجزات ، وسجلا لمختلف الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية .

ومن صفات القرن العشرين المميزة انه عصر تطور ونشوء دول وقوميات وأمم جديدة ظهرت على مسرح عصبة الامم .. وبالرغم من انضمام دول كثيرة لهذه العصبة الا ان قليلا من هذه الدول يمكن وصفه بأنه قد وصل الى مرحلة التحرر الكامل والنضوج .. ولقد شاركت معظم الدول العربية فى الانضمام ايضا بعد ان مرت بأحداث قاسية واطماع استعمارية نظرا لما تتمتع به من مركز استراتيجى هام ونظرا لما من الله عليها به من كنوز وخيرات . ولقد ساعدت الحركات الدينية والسياسية على تنبيه الشعب العربى وايقاظه بعد فترة سبات عميق . وظهر الوعى القومى الذى كان دافعا للثورة والحرية .

وكان العالم العربى ـ وما زال ـ محورا هاما من محاور الصراع والاهتمام والاطماع من القوى الكبرى . ولقد نالت منطقة الخليج حصتها من هذا الاهتمام . وما زالت بعض القوى تحاول ـ دون جدوى ـ التدخل فى شئونها .

وهذه الدراسة التى نقدمها تتناول احدى دول الخليج العربى (الكويت) وهى دراسة تحليلية للعوامل التى ساعدت على قيام هذه الدولة .

وتبدأ الدراسة بتأسيس الدولة على يد العتوب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية والذين كان مجيئهم بمثابة المعالم الاولى لتأسيس الدولة . ولقد تعرضنا ببعض الايجاز للتاريخ القديم للكويت كمدخل لابد منه للدراسة .

كذلك ناقشنا التطورات السياسية التى مرت بها فى القرن الثامن عشر . وازدهارها الكبير ثم صراعها مع القوى العربية الموجودة فى المنطقة وتأثير هذا الصراع الدولى والاهتمام الاستعمارى ثم حكم الشيخ مبارك الذى ازدهرت فى عهده الكويت وخطت خطوات كبيرة نحو التقدم والتحضر واصبحت قوة مؤثرة فى المنطقة .

وتبين الدراسة كذلك دور البترول فى الصراعات السياسية الدولية التى دارت بالمنطقة ثم دوره فى تطور الكويت الداخلى وتدعيم مركزها العربى والعالمى .

بداية التاريخ الحديث للكويت

لمحة من التاريخ القديم

تقع الكويت فى الشمال الشرقى من الخليج العربى وتتاخمها العراق من الشمال والمملكة العربية السعودية من الغرب وباعتبارها امتدادا طبيعيا للبساط الصحراوى فى شبه الجزيرة العربية وجزءا منها بأحداثها وهجراتها وسكانها ، فلقد شهدت حوادث تاريخية هامة . ولكن قليلا من هذه الحوادث تم تدوينه بالاضافة الى المعلومات المبعثرة والاكتشافات الاثرية التى ـ برغم وجودها ـ فانها لا تلقى الاضواء الكافية على التاريخ القديم لتلك المنطقة .. أما التاريخ الحديث فلم يبدأ الا من حوالى قرنين ونصف القرن .

وبدأت معرفة التاريخ القديم باكتشاف حجر يحمل نقشا يونانيا على حائط صغير من الحجر على بعد ٧٠٠ ياردة من الجنوب الشرقى لقرية (الزور) التى تقع على الساحل الشرقى لجزيرة (فيلكا) والكتابة عبارة عن تقدمه من بحار يونانى اسمه (ستوليس) عمل تحت لواء نياركوس أمير البحر الذى كان يقود اسطول الاسكندر الاكبر .

ففى القرن الرابع قبل الميلاد قرر الاسكندر الاكبر فتح طريق تجارى يربط عاصمته فى الشرق (بابليون) بالمناطق

التى تم الاستيلاء عليها فى الهند . وبنى لهذا الغرض اسطولا يتكون من ١٨٠٠ سفينة حربية تم نقلها الى الهند ، ومن هناك شرع فى الانتقال بحرا الى بلاد فارس سنة ٣٢٥ ق.م . وقد طلب من الادميرال نياركوس ان يبدأ الرحلة من الهند الى فارس . وبعد ١٤٦ يوما وصل نياركوس بالاسطول سالما الى منطقة شط العرب حيث التقت القوات البحرية والبرية ولكنه وبعيدا عن دلتا النهر ضل طريقه فألقى مراسيه بجانب جزيرة (بوبيان) تمهيدا لاعادة استئناف سيره . وهناك تحطمت سفنه بعد أن فاجأتها العواصف والأمواج وتم انقاذ البحار ستوليس ويبدو انه كان احد القادة فى الاسطول . يقول لوكهارت فى كتابه :

Out line of the history of Kuwait

« من المعتقد ان النقش الموجود على هذا الحجر انما تم للاحتفال بانقاذ ستوليس ورفيقته أوسترا من حطام احدى السفن ويصعب تحديد التاريخ بدقة . ولكن يعتقد انه كان فى فترة تقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠ ق.م . ومن الممكن ان تكون السفينة التى كان ستوليس ورفيقته يسافران عليها حينما تحطمت تابعة لاسطول نياركوس الذى وصل الى اعالى الخليج الفارسى فى بداية عام ٣٢٥ ق.م » .

لقد حمل الاغريق معهم حضارتهم ومعتقداتهم وبنوا معبدا لهم فى جزيرة (فيلكا) سمى باسم (أكاروس) أما الجزيرة فسموها لاريسا . ووجدت فى هذا المعبد اثار كثيرة من جملتها قطع نقدية وتماثيل . وتدل حجارة المعبد على المستوى العالى الذى وصلت اليه الحضارة فى الجزيرة . وبهذا الاكتشاف تأكد ان (فيلكا) والكويت فى زمن الاسكندر كان لهما مركز استراتيجى بالنسبة للطرق التى تربط بين الهند والاراضى العربية . وبمجىء الامبراطورية الرومانية واحتلالها لأجزاء كبرى من الاراضى العربية لا نرى اثرا يذكر لأهمية (فيلكا) كميناء استراتيجى ، والظاهر ان اهمية الميناء قد تلاشت فى ذلك العهد .

وبعد مجىء الاسلام ، وفى خلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه سجل التاريخ أهمية أخرى للمنطقة . اذ دارت فيها معركة ذات السلاسل الشهيرة بين الفرس والمسلمين والتى انتهت بانتصار المسلمين وسقوط عاصمة الفرس الشرقية (المدائن) ـ قرب بغداد الآن ـ وبذلك فتح المسلمون (ميسوبوتوميا) ومنذ سنة ٧٥٠م ـ ١٢٥٨م أصبحت هذه الاراضى وما يتبعها داخلة فى حدود الخلافة العباسية التى قامت بتحويل العاصمة من دمشق الى بغداد فى عهد الخليفة المنصور وهو الذى بنى بغداد ١٤٥هـ / ٧٦٢ م . ودخلت الحضارة العربية الاسلامية ذروتها فى عهد هارون الرشيد الذى سمى عصره بالعصر الذهبى . ومن الطبيعى ان تكون الكويت

التى تقع على مقربة من البصرة هامة جدا بالنسبة لطرق التجارة .

وقبل ان يحطم الاتراك الامبراطورية الرومانية الشرقية وذلك باحتلال عاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م كانت البندقية وجنوه وبيزا مراكز تجارية هامة فى التجارة مع الهند والشرق عبر دجلة والفرات والبحر الاحمر .ولكن هذه الطرق اغلقت أمام الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس عام ١٧٠٦ م . عقب استيلاء الاتراك على القدس . لتبدأ بعد ذلك سلسلة الحروب الصليبية والتى بدأت عام ١٠٩٩ م . واستمر الصراع لمدة قرنين فشلت خلالهما جهود الاوربيين ومحاولاتهم لاخراج المسلمين من هذه الاراضى أو الانتصار عليهم . وقد غفل الاتراك عن أهمية جبال طوروس المؤدية الى عاصمتهم . وهذا بدوره أدى الى حدوث تغيير كبير فى طرق المواصلات التجارية ، فقد اخذ الغرب يبحث عن طرق اخرى للحصول على ثروات الشرق . وبدأ ذلك عام ١٤٨٦ م عندما قام الرحالة البرتغالى بارثلوميو دياز باكتشاف غير مقصود لرأس الرجاء الصالح وفى عام ١٤٩٨ قام فاسكو دى جاما بالمغامرة وشق طريقه عبر الرأس الى الهند بمساعدة الربان العربى الشهير أحمد بن ماجد . ليبدأ بذلك استعمار أوروبى آخر للشرق بعد حوالى ١٨٠٠ عام من امبراطورية الاسكندر الاكبر فى نفس المنطقة .

بدأ البرتغاليون بناء امبراطوريتهم فى الشرق واطلقوا على انفسهم « قاهرى البحار وملوك الملاحة والتجارة فى اثيوبيا والمنطقة العربية وفارس » وذلك بعد فترة قصيرة من استيلاء الفونس دى البوكيرك على مضيق هرمز واعلانه مركزا للتجارة فى الخليج سنة ١٥١٤ م . وكانت مطامع البوكيرك كبيرة فقد قرر الاستيلاء على الطرق المؤدية الى البصرة عبر الدلتا كوسيلة ضرورية للحفاظ على الامبراطورية البرتغالية فى الهند وكان الاتراك يسيطرون على تلك الاراضى آنذاك . ولقد تحدى البرتغاليون الاتراك فاستولوا على تجارة البحرين الغنية باللؤلؤ وكذلك القطيف وعينوا عاملا لهم فى البصرة لحماية مسالك تجارتهم وبنوا حصونا على شواطىء الخليج العربى وكان منها حصن القرين الذى يقع الآن فى الجهة المقابلة لميناء الشويخ بالكويت .

وفى نهاية القرن السادس عشر ظهر الانجليز والهولنديون فى منطقة الخليج وفى عام ١٦٢٢ م . استولى الانجليز على مضيق هرمز من البرتغاليين بالتعاون مع الفرس واعادوه للفرس الذين قاموا بدورهم بتخريب المنطقة بعد انسحاب البرتغاليين منها ..

هذه المعلومات السريعة عن تاريخ المنطقة توضح أهميتها وأهمية الكويت فيها . ولكن الكويت لم تلعب دورا هاما أو بارزا كما لعبته بعض مناطق الوطن

العربى الاخرى وذلك لفقر أراضيها ، وندرة المياه فيها ، ولكننا سنراها تلعب دورا أهم فى التاريخ الحديث بسبب الثروة النفطية .

وقبل ان ننتقل الى ذلك الفصل يحسن بنا أولا ان نعرف من هم هؤلاء الذين ساعدوا فى قيام هذه الدولة وما هو أصلهم ودورهم فى حياة الكويت الحديثة .

العتوب وبداية التاريخ الحديث للكويت :

لم تتأسس الكويت بالتحديد فى سنة ١٧١٠ م كما تقول طائفة من المؤرخين وربما كان تأسيسها قبل وبعد هذا التاريخ والسبب ان تعاقب هجرات القبائل التى جاءت للكويت من الجزيرة العربية كان فى فترات متفاوتة . ولقد تركت هذه القبائل اثناء مرورها بعض الاثار التى دلت على توقفها لفترة من الزمن ولكن بمجىء العتوب بدأت صفحة من تاريخ الاستقرار والاهمية للمنطقة . ويحيط الشك بتاريخ وصول العتوب للكويت ولكن فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . شهدت الجزيرة العربية سنوات عجافا هلك على اثرها عدد كبير من الناس والدواب واستمرت من سنة ١٦٦٥ الى سنة ١٦٦٧ م . فهاجر من نجا وكان من جملة المهاجرين العتوب الذين كانوا من سكان أواسط الجزيرة العربية .

وقد اتجه العتوب شرقا فى بداية تحركاتهم ومن ثم تبعثرت هذه القبائل فى مناطق واسعة من الخليج قبل تجمعها فى موضع الكويت التى كانت تخضع لحكم بنى خالد .

كانت الكويت ـ كما قلنا . تخضع لحكم أمراء بنى خالد وهم قوة كبيرة فى شبه الجزيرة العربية وكانوا يتمتعون بسمعة حسنة واحترام كبير من بقية القبائل . وكانت هجماتهم القوية على داخل نجد مصدر رهبة وخوف لبقية القبائل . وكانت الكويت مركزا من مراكز صيد الاسماك وفيه كوت قام ببنائه براك احد أمراء بنى خالد . واسم الكويت تصغير لاسم كوت وهو اسم متعارف عليه فى العراق ونجد وبعض بلاد العجم ويطلق على البيت المربع كالحصن أو القلعة ويتخذ مركزا أو مستودعا للزاد والذخيرة . وقد وهبه بنو خالد لآل صباح عندما نزلوا تلك الاراضى .

أما أصل العتوب فهم حلف يضم مجموعة من بطون القبائل معظمهم من قبيلة عنزة وهى قبيلة عربية عدنانية أما عن تسميتهم فهناك مصادر تقول ان هذه القبائل عرفت بالعتوب نظرا لارتحالهم من مناطق اقامتهم ثم عروجهم أو عتبهم نحو الشمال . ومصادر اخرى تطلق عليهم بنى عتبة .

ومن المؤكد ان العتوب كانوا على علم كبير بأهمية المنطقة قبل ان يهاجروا اليها . إذ كانت تقع فى الطريق التجارى

للقوافل التى تمر من وادى الباطن الى الكويت ومنها الى بلاد ما بين النهرين ولقد توقف العديد منهم فى الكويت من أجل الحصول على المياه والعشب . وكانوا معجبين بطريقة معيشة بنى خالد حتى ان الكثيرين منهم دخلوا فى حمايتهم وانفصلوا عن بقية اقوامهم . أما نشاط بنى خالد التجارى فكان معروفا فى المنطقة وهو ما كان ينقص العتوب الذين كانوا يحتفظون ببداوتهم الاصلية ولم يجربوا بعد هذه الحرف والاعمال مثل التجارة والملاحة ، حتى ان اجسامهم لم تكن تتحمل أى عمل شاق لعدم المامهم به . ولهذا كان يقال على الذين يشتغلون بالتجارة والملاحة مع بنى خالد من البدو انهم صغيرو النفوس[1] لأن هذه الاعمال لا تتناسب وطبيعة نفوس البدو المتعالية .

وكما ذكرنا فبعد ان واجهت العتوب ظروف القحط القاسية اضطروا للهجرة وكانت وجهتهم الكويت فاتجهوا أولا الى وادى الباطن الذى كان بمثابة مراع خصيبة وكانوا على علم به . ثم مروا بوادى الدواسر وقطر وتوقفوا هناك ولكن هذه الاراضى فى الحقيقة لم تكن هدفهم الاساسى .

وكان وصول العتوب الى المنطقة فى شكل هجرات صغيرة متتابعة أمرا هاما لأنه سهل لهم تحقيق هدفهم اذ لو كان وصولهم فى شكل هجرة واحدة كبيرة لكان الامر أشبه بغزوة كانت بلا شك ستدفع بنى خالد لمنعها ومقاومتها .

وقد اتجهت احدى مجموعات العتوب الى وادى الباطن وام القصر فى خور الزبير . واتجهت المجموعات الأخرى الى اطراف الزبير ومنها تفرقوا الى حيث ابار الجهرة عبر التلال الرملية . وكانت أم قصر مفتاحا هاما لملتقى الطرق التى تربط الزبير وخور الصبية وميناء عبد الله . وهذه الطرق كانت تعتبر بمثابة شريان الخليج الى منطقة بلاد ما بين النهرين .

يصف السير أرنولد ويلسون (مؤرخ الخليج) أم قصر فيقول : « أم قصر كانت الميناء الهام مربها العتوب بعد مجيئهم من قطر ومرورهم بالبحرين وهى تبعد حوالى ٣٥٠ ميلا عن موطن العتوب الاصلى . وهؤلاء المهاجرون كانوا ميالين الى البحر وهو احتمال يقوم على اساس ان أم قصر كانت اقرب الى بلاد ما بين النهرين منها الى الكويت وكانوا مصممين على العمل فى هذه الأراضى ولكنهم لم ينجحوا فى أم قصر والسبب انهم كانوا قريبين من قوة الاتراك فى البصرة وقريبين من غارات المنتفك فى حوض الفرات مما جعل الملاحة مشكلة صعبة جدا بالنسبة لهم » .

كذلك جاء فى نشرات وثائقية لشركة البترول الوطنية (الكويت) ان العتوب تحركوا من ام قصر الى المخراك ومن هناك

---

(١) ارنولد ويلسون

الى خور صبية حتى وصلوا الى ميناء الكويت ولكن هذه المنطقة كانت قريبة الى السلطات العثمانية فى البصرة والذين شكوا فى أمر قوتهم المتزايدة وأجبروهم على الجلاء الى الشاطىء الجنوبى للكويت حيث طلبوا الاذن من أمراء بنى خالد للمكوث فى المنطقة .

وهناك مصدر اخر هو (الكويت ترحب بالتجارة) يقول : « ان المناطق الكويتية كانت جزءا من الحسا وتحت سلطة بنى خالد الذين أخضعوا كل الشمال الشرقى للجزيرة العربية ولقد اعطى بنو خالد موافقتهم للعتوب بعد ان طلب العتوب اذنا بالاستقرار ومشاركة بنى خالد الرعى والغوص والصيد والتجارة ولم يجرؤ العتوب على القيام بأى نشاط الا بعد اذن من بنى خالد » .

ويذكر ويلسون أيضا « ان العتوب وطدوا أقدامهم ونجحوا فى تقوية صلاتهم مع بعض القبائل مما أدى الى ضعف مركز بنى خالد . وأدى ذلك فى النهاية الى استقلال هذه القبائل فى الوقت الذى بدأت قوة بنى خالد فى الضعف بسبب غارات الوهابيين داخل نجد » .

أما المصادر العربية فقد اختلفت قليلا حول رحيل العتوب وأماكن استقرارهم فيقول الاستاذ أبو حاكمة الذى جمع فى كتابه آراء وأقوال مؤرخين كويتيين « ان العتوب كانوا من سكان مقاطعة الافلاج فى أواسط الجزيرة ولقد اضطرهم الجفاف الى النزوح شرقا الى قطر التى كانت يومئذ خاضعة لبنى خالد ثم تبعثرت هذه القبائل فى مناطق اخرى فى موانىء الخليج قبل تجمعها فى الكويت »

أما النبهانى فيقول : « ان العتوب استوطنوا المنطقة القريبة من جزيرة الصبية جنوبى البصرة الا ان ولاة البصرة العثمانيين أرغموهم على الجلاء بسبب الغارات التى كانوا يشنونها على القوافل المتجهة الى البصرة . وعلى السفن التى كانت تعبر شط العرب .

والرشيد يقول ان ثمة رأيا يقول ان العتوب استوطنوا جزيرة قيس وعبدان على ساحل الخليج أولا ، ثم أبحروا الى الكويت هربا من غارات القبائل العربية .

أما المؤرخ القناعى فى كتابه (صفحات من تاريخ الكويت) فيحسم هذا الموضوع بقوله ان العتوب استوطنوا قطر بعد نزوحهم من الافلاج ، ومنها تفرقوا على اجزاء عديدة من ساحل الخليج العربى الى ان استقر بهم المقام فى الكويت .

كانت العلاقات ودية بين بنى خالد والعتوب فى بداية الامر ، ولكن يبدو ان وجود صراع قوى بين أفراد العائلة وبين بقية القبائل ، أدى الى ان تستقل القبائل الفرعية عن بنى خالد مع الاحتفاظ بالولاء لهم وهذا هيأ للعتوب الاستقلال .

يقول كارستون نيبور الرحالة الدنماركي في وصفه لمدينة الكويت الكويت أو القرين كما يسميها الاوروبيون والفرس . مدينة بحرية تبعد ثلاثة أيام عن البصرة ، سكانها يعيشون على صيد السمك والغوص ، وهى محكومة من قبل شيخها الذى يتبع لشيخ الاحساء فى ولائه ولكنه يتطلع الى الاستقلال أحيانا . وفى مثل هذه الحالات حينما يتقدم شيخ الاحساء بجيشه يتراجع سكان القرين بممتلكاتهم الى جزيرة (فيلكا) ويذكر نيبور « ان الكويت كان لديها حوالى ٨٠٠ قارب صيد . وكانت هذه الثروة قاعدة اقتصادها » .

اختلفت الاراء حول من ولى الحكم من عائلات العتوب والسبب كما ذكرنا ان القبائل لم تفد الى الكويت دفعة واحدة ولكن هذا يعكس خطأ فى تسلسل الاحداث التاريخية[١] كما ورد فى تقرير المستر واردن المؤرخ فى سنة ١٧١٦م وفيما يلى نص التقرير[٢] .

« فى أعقاب سنة ١٧١٦م وبدافع من المصلحة المشتركة والطموح قررت ثلاث بطون لقبائل عربية هى بنو صباح وآل خليفة والجلاهمة أن تنشىء اتحادا فيما بينها فاستولت على منطقة من الأرض على الساحل الشمالى من الخليج تسمى الكويت وكان بنو صباح يخضعون لزعامة الشيخ سليمان بن أحمد والجلاهمة للشيخ جابر بن عتوبى وآل خليفة للشيخ خليفة ابن محمد »[٣] .

ويقول آل خليفة انهم قد وصلوا قبل آل صباح الى المنطقة أما من هو الحاكم فعلى ما يبدو فانه كان يحكم المنطقة فى النصف الأول من القرن أحد أمراء بنى خالد فى سنة ١٧٥٠م . أما سعدون بن محمد بن غرير الحميد فقد حكمها فى بداية القرن الثامن عشر وخلفه أخوه على بعد صراع خاصة ضد دجين بن سعدون والمناعى بينما تولى الأخ الثالث سليمان حكم المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة فى نفس العام . هذا الصراع الذى نشب كان له أثر كبير وخاصة بعد وفاة سعدون سنة ١٧٢٢م اذ هيأ لقبائل العتوب الاستقلال ولكنهم عجزوا عن ممارسته كاملا الا بعد سنة ١٧٥٢م لا بسبب الخلافات فقط بل بسبب تصاعد قوة الوهابيين التى انعكست على مناطق نفوذ بنى خالد .

وهكذا ما ان حل القرن الثامن عشر حتى وطد العتوب أقدامهم وفى سنة

(١) ابو حاكمة

(٢) جميع هذه الروايات قد ثبت خطؤها بعد ان اكتشفت الوثيقة العثمانية التى تثبت هجرة العتوب الى البصرة . راجع البحث الخاص بالعتوب فى هذه المجلة وكذلك ما ذكر فى نفس البحث حول هجوم العتوب على البحرين عام ١١١٣هـ ١٧٠١م .

(٣) لم يقل آل خليفة ذلك بل كان وصولهم جميعا وكان بيت آل صباح وآل خليفة واحدا عند نزولهم الكويت .

١٧٥٢م . انتخبوا الشيخ صباح حاكما وفى عام ١٧٥٨م كانت سلطته قوية فى أنحاء الكويت وما جاورها ونظرا للانجازات التجارية التى حققتها الكويت ونظرا لموقعها التجارى الهام فقد غدت من المحطات الهامة التى تقصدها القوافل القادمة من حلب لنقل السلع التى ترد من الهند على السفن الكويتية والمسافرين من الخليج عبر الصحراء الى حلب فى سوريا .

وقبل أن ننتقل الى نشأة الكويت نقف قليلا لنتساءل عن الأسباب التى ساعدت العتوب على توطيد أقدامهم على الساحل الشرقى للجزيرة العربية . ونوجزها فى أربعة أسباب :

١ـ تصاعد قوة الوهابيين فى وسط الجزيرة وصراعهم مع بنى خالد الذى أدى الى ضعف قوة بنى خالد نتيجة للهجمات التى كانت تشن على أراضيهم ، بالاضافة الى صراع أمراء بنى خالد بين بعضهم البعض .

٢ـ حالة الفوضى والاضطرابات التى اجتاحت فارس وافتقارها الى سلطة مركزية موحدة تقبض على زمام الأمور وكذلك عجز السلطات العثمانية عن ممارسة سلطتها لضعف وتفكك حكامها .

كل هذا أدى الى تغييرات مستمرة فى المنطقة وهذا بدوره أدى الى ظهور تجمعات صغيرة استطاعت أن تبنى نفسها متحررة من أى تدخل خارجى أو بعبارة أصح عدم وجود قوة أخرى فى الخليج تستطيع أن تقف موقف المنافسة لهذه التجمعات .

٣ـ موقع الكويت على الطريق التجارى بين الخليج العربى وطريق الصحراء مما أدى الى استفادة العتوب من خطوط المواصلات البحرية للشركات التجارية الأوروبية عبر الخليج واليه بالاضافة الى الطرق البحرية .

٤ـ موقع الكويت بحماية أراضى بنى خالد الذين كانوا يشجعون التجارة ولقد حقق ذلك النمو والازدهار لدولة العتوب فى ظل حكم بنى خالد الذين وفروا الحماية اللازمة للمدن التى قامت كذلك نذكر نقطة هامة وهى ان نمو الكويت الاقتصادى كان ضعيفا فى بداية الأمر فلم تكن الكويت غنية بدرجة تشد نظر أى قوة مجاورة وهذا مما زاد فى ازدهارها لكونها بعيدة عن القوى المتنافسة ولو لفترة من الزمان .

التطورات السياسية للكويت فى القرن الثامن عشر

حققت الكويت ازدهارا سريعا وتطورا هاما بعد عام ١٧٥٠م . وهذا التطور أدى الى حمل فئة من عتوب الكويت على الهجرة الى الجنوب لتأسيس مدينة أخرى وهى (الزبارة) والتى بلغت

ألغى العتوب الرسوم على التجارة

فتحولت تجارة الخليج إلى موانئهم

بدورها شأنا عظيما من الازدهار ونافست مدينة الكويت كميناء تجارى ، ومن الطبيعى أن يكون هذا التطور مقترنا بوجود قوة بحرية عتوبية فى الخليج ، الأمر الذى جعلهم يجوبون مياه الخليج واحتلال هذا الميناء الهام .

لقد نتج عن ازدهار الكويت وتطورها ان بعض القوى فى الخليج والجزيرة العربية . استرعى انتباهها هذا النمو فوقفت من الكويت موقفا عدائيا ، أما البعض الآخر فلم يهتم ، أما القوى التى كان لها تأثير كبير فى المنطقة فهى الفرس والسلطات العثمانية ، وشركة الهند الشرقية ، والقوى العربية البحرية الأخرى فى الخليج ، بالاضافة الى القوة الوهابية فى نجد .

أما الفرس فلم تكن لديهم القوة البحرية الكافية وكانت بلادهم فى حالة عدم استقرار مما جعلهم عاجزين عن السيطرة على حدودهم الساحلية وكذلك العثمانيون فلم يكن حالهم أحسن من حال الفرس فقد كانت حالة التفكك كبيرة بين حكام الأقطار وخاصة باشا بغداد ووالى البصرة .

هذا بالاضافة الى ان قوتهم لم تكن قادرة على تحدى قوة بنى خالد على السواحل الشرقية للخليج .

أما بالنسبة لشركة الهند الشرقية فكان أكثر ما يهمها هو الأمان والاستقرار فى الخليج من أجل سفنها ولم تكن أى من هذه السفن تتعرض لأى نوع من القرصنة من جانب العتوب أو أى جانب أخر فى ذلك الحين .

أما الوهابيون فكانت مراكزهم فى الدرعية وغيرها من بلاد نجد وهذه المراكز كانت بعيدة عن الكويت بالاضافة الى ان قوتهم لم تكن قد ظهرت بعد ولكن

بعد عام ١٧٦٦م . بدأوا يتوسعون شرقا على حساب بني خالد ويوطدون سلطانهم فى أواسط الجزيرة العربية .

أما وجه الخطر الحقيقى فقد ظهر فى أقوى المجموعات العربية على الساحل الفارسى وهم بنو كعب وعرب بندر ريق والمحمرة وقد أثرت عمليات القرصنة التى أخذ يمارسها بنو كعب بصورة متزايدة على حركة التجارة البحرية للعتوب . كذلك بدأوا بشن حملات ضد تجارة شركة الهند الشرقية وهى فى طريقها الى مستودعاتها فى البصرة .

وقد دفعت الاضطرابات فى الجزيرة العربية وفارس والعراق بموجات كبيرة من العتوب الى الجلاء عن الكويت الى الجنوب وانشاء مستقر جديد فى قرية الزبارة بقطر ، وبدأ آل خليفة بالهجرة وصحبتهم فئات أخرى من أهل الكويت .

وقام كثير من المؤرخين بتحليل تلك الأسباب فمنها السياسية ومنها الاقتصادية ومنها الاجتماعية وهذا خارج عن نطاق هذا البحث . والذى يهمنا هو ان الزبارة أصبحت فى حالة جيدة من التطور والازدهار حتى انها أصبحت تنافس الكويت فى تجارتها .

ويرجع هذا التطور السريع الى مشاركة العتوب لبنى خالد فى التجارة وفى عمليات صيد اللؤلؤ على هذه الشواطىء الغنية وسيطروا تدريجا حتى وصلوا لدرجة احتكار مصائد اللؤلؤ فى كل من شواطىء قطر والبحرين . ومع مضى الوقت تدهورت التجارة فى ميناء العقير والقطيف التى كانت تابعة لبنى خالد ، كذلك قرر العتوب عدم فرض الرسوم فى هذا الميناء فى الوقت الذى كانت حكومة البصرة تفرض رسوما عالية على التجارة مما شجع التجار على نقل بضائعهم الى موانىء العتوب بالاضافة الى الحصار الفارسى للبصرة والذى جعل التجار يتوجهون الى الزبارة سعيا وراء الأمان والاستقرار .

كل هذه العوامل ساعدت العتوب على أن يمتلكوا قوة بحرية كبرى وأصبحوا من أشهر رواد البحر فى المنطقة .

ولقد عجز الكثيرون عن منافسة موانئهم من القوى الأخرى فى الخليج فاتجهوا الى الانتقام ومن هنا بدأ هؤلاء الخصوم مهاجمتهم وكان أشهرهم عرب بوشهر وبندريق وبنو كعب ، ونتيجة لهذا الصراع فتح العتوب البحرين سنة ١٧٨٣م وترتب على ذلك اذ اتسع نفوذهم فى المنطقة ووجدوا أنفسهم وجها لوجه مع عرب الساحل الفارسى - والشيخ راشد حاكم رأس الخيمة وابنه والشيخ عبدالله حاكم هرمز . غير ان الخطر الأكبر تمثل فى سلطان مسقط الذى ادعى السيادة على تلك الجزر وكان من نتائج أطماعه تدخل السعوديين لحسم الموقف .

احتلال الفرس للبصرة وأثره على الكويت

وقع حادث هام فى الفترة من ١٧٧٥م الى ١٧٧٩م أثر على الكويت وهو احتلال الفرس للبصرة ، ومع أن العتوب لم يشاركوا بالقتال الا أن نتائجه كانت كبيرة ومؤثرة ولكى ندرك أهمية هذا الحدث وما خلفه الحصار والاحتلال من أثر فى تاريخ العتوب وفى شبه الجزيرة العربية يحسن بنا أن نوجز الموقف الذى اشترك فيه الفرس والعرب والعثمانيون كما ساعد فى تدخل الانجليز .

كان لاحتلال الفرس للبصرة أسباب كثيرة منها اسباب سياسية ومنها أسباب اقتصادية . ولعل النجاح التجارى الذى أحرزته البصرة بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية الانجليزية اليها فى أوآخر القرن الثامن عشر أثر فى تدهور تجارة بوشهر . كذلك أخذ التذمر ينتشر فى صفوف جيش كريم خان وكان الجيش يريد مهاجمة والى بغداد انتقاما للمعاملة السيئة والرسوم التى كانوا يفرضونها على الزوار الفرس الى كربلاء . لذلك قرر كريم خان ارسال حملة ضد الحاكم التركى فى البصرة .. وجاء فى تقرير بيرسى سايكس فى كتابه (تاريخ الفرس) ان كريم خان شعر بالغيرة من أهمية البصرة التى كانت تستحوذ على تجارة الهند من موانىء الخليج وقد سخط جيشه عليه لذلك فقرر ارسال حملة ضد الحاكم التركى فى البصرة . وطلب كجزاء على فرضه ضرائب عالية على الحجاج المتجهين الى كربلاء أن يرسل له رأس والى بغداد .

وبدأت الاستعدادات لغزو المدينة وتفاقم الخطر وأخذت الاجتماعات تعقد يوميا بين سليمان آغا محافظ البصرة والقبطان ووجهاء البصرة والمعتمد البريطانى ، وفى ١٦ مارس ١٧٧٥م وصل الجيش الفارسى بقيادة صادق خان الى خليج الحويزه ، واستمر الحصار ثلاثة عشر شهرا وفى النهاية استسلمت المدينة فى شهر أبريل ١٧٧٦م .

وظهر أن تحالف عرب الساحل الفارسى مع الفرس كان قويا كذلك انحاز لهم عرب بنو كعب وبوشهر وشيخ بندريق ووضعوا كل امكانياتهم فى خدمة الفرس ، أما الذين وقفوا بجانب العثمانيين فكان منهم عرب المنتفك والأسطول العمانى الذى نجح فى تخفيف الحصار عن المدينة . أما السفن التابعة لبحرية بومبى فقد جاءت لمساعدة باشا بغداد العثمانى وانضم الوكلاء التجاريون وطرادات شركة الهند الشرقية الانجليزية الى جيش الباشا .

أما عن موقف عتوب الكويت من الحصار فيبدو أن من الصعب تحديد دورهم ولكنهم أثروا ارضاء الطرفين لأنهم كانوا يجهلون لمن ستكون الغلبة . فساعدوا كريم خان بأن أرسلوا له حوالى ٢٠٠ رجل للمساعدة فى حين تم ارسال سفن العثمانيين لاصلاحها فى ميناء الكويت .

وأثبت الفرس وحشيتهم فى هدم البصرة واخافة السكان وترويعهم ووصف جيمس كوبر الرحالة البريطانى سكان البصرة كما رآهم فى ذلك الحين بقوله : « كما يكون رعايا الحكومات المتسلطة . وحتى تحت نير أقسى اضطهاد كان سكان البصرة لديهم الثورة الداخلية ضد الحكام ، ولكن المدينة كانت تخلو من السكان بسبب الطاعون والمجاعة اللذين ابتليت بهما قبل أن تسقط فى أيدى الفرس ». وهكذا انخفض عدد سكان البصرة الى حد كبير ، وهذا بدوره أدى الى زوال الحياة التجارية منها .

على أن النتائج التى تمخض عنها الحصار ثم الاحتلال تركت آثارا بعيدة المدى على الكويت فلقد أسهم ذلك فى ازدهار الكويت ونموها سواء الاقتصادى أو السياسى وقامت علاقات مباشرة بين الكويت وممثلى شركة الهند الشرقية ، كذلك أصبحت الكويت مركزا تجاريا هاما للقوافل التى تنقل البضائع بين البصرة وحلب ، يضاف الى ذلك تأزم العلاقات بين الفرس والانجليز فقد كانت التجارة التى تأتى من الهند والتى يمكن أن ترسل الى ميناء بوشهر ومنها الى حلب عن طريق البصرة تفرغ فى كل من مينائى الكويت والزبارة . الأمر الذى ساعد هذين البلدين على جمع الثروة من ناحية ، واثارة حقد وغيرة الدول البحرية العربية الأخرى من ناحية ثانية . وخصوصا بنى كعب وبوشهر . الا أن ذلك شجع على تطور علاقات الانجليز والعتوب فلقد نمت الروابط الانجليزية الكويتية عام ١٧٧٥م عندما نقل البريد البريطانى من الخليج الى حلب عن طريق الكويت بدلا من الزبير بسبب محاصرة الفرس للبصرة على الرغم من أن احتلال الزبير وقع فى عام ١٧٧٨م الا أن بريد الصحراء الانجليزى كان يرسل من الكويت .

كذلك حلت الكويت مشكلة شركة الهند الشرقية الانجليزية فى تصدير بضائعها الى أسواق الشرق الأوسط ، وكل ما كان يتمناه الانجليز فى ذلك الوقت هو أن تظل حكومة الكويت محافظة على سياسة الحياد لكى يكون فى وسع التجار ايجاد مخرج لمواصلة أعمالهم التجارية . وفعلا كان لهم ما تمنوه فلقد ظلت الكويت محايدة فى ذلك الوقت وبعيدة عن متناول أيدى الفرس . ولكن كانت طرق التجارة تتعرض لهجمات القبائل العربية بتحريض من جانب الفرس فى البصرة .

ومن اهم النتائج لهذا الاحتلال النمو البحرى لقوة العتوب اذ أن العتوب بكونهم تجارا فانهم كانوا يزيدون عدد سفنهم كلما نمت تجارتهم . وبهذا الاحتلال نمت تجارتهم أكثر وكان لابد بالتالى من زيادة السفن التجارية ثم الحربية التى لابد من وجودها لحماية التجارة والمسافرين وخاصة أن هذه الحماية أصبحت أمرا ضروريا بعد تزايد الصراع فى المنطقة .

(البقية فى العدد القادم)